المحطات التجارية الليبية وأهميتها في نشر الثقافة العربية الإسلامية بأفريقيا خلال القرن التاسع عشر

■ د. المدني سعيد عمر

● كلية الآداب غريان - جامعة الجبل الغربي

المقدمة

احتلت ولايــة طرابلس الغرب خلال القرن التاسع عشر مكانة مميزة وحلقة وصل بين الشمال والجنوب والغرب والشرق، وبين أوروبا وبلاد ما وراء الصحراء، وعندما ذكر الرحالة الألمانيG Rotifs أنه من يريد أن يتحكم في السودان وتشاد يجب عليه الاستلاء على طرابلس الغرب فهو محق في قوله، لأنها تمثل البوابة الشمالية للقارة الإفريقية[1] كما زار أغلب المدن التجارية الواقعة في الصحراء من شرق البلاد إلى غربها ونظراً لأهمية الموضوع نحاول في هذا المقال طرح عدة تساؤلات منها:

1. الدور الذي لعبه الموقع الجغرافي لليبيا في مساهمة نشر الثقافة الإسلامية.
2. أهم المحطات التجارية التي لعبت دوراً في نشر الثقافة.
3. أهم الطرق التجارية التي ساهمت في ذلك.
4. أهم الروابط التي تربط هذه المحطات مع المحطات الإفريقية.

ولهذا تمتعت المراكز التجارية بأهمية كبيرة في تنشيط التبادل التجاري مع البلدان الإفريقية بالإضافة إلى نشر الثقافة الإسلامية والدين الإسلامي.

أهمية التجارة:

التجارة لها أهمية كبرى في أوجه النشاط البشري الذي يقوم على تبادل منافعها وتؤثر لمن لا يستطيعون إنتاجه أو الحصول عليه كما أنها تساعد على التقدم في الميادين الأخلاقية والثقافية بفضل ما تتطلبه من إمكانيات مستمرة[2].

وتفيدنا الكثير من المصادر العربية بأن الإسلام قد انتشر في أماكن وصل التجار المسلمون إليه في مطلع قدومهم إلى أفريقيا، خاصة عندما ازدهرت الحركة التجارية[3].

وغير أن الموقع الجغرافي للمحطات التجارية، يربط المدن التجارية في أفريقيا مع المحطات التجارية في ولاية طرابلس الغرب، التي تعد المنطلق للرحلات التجارية إلى أفريقيا[3]

وإن أهم ميزة تميّزت بها المراكز التجارية من خلال الموقع الجغرافي لليبيا الذي أعطاها دوراً متنوعاً وحيوياً في نشوء حركة تجارية هامة في التبادل التجاري والاتصال الحضاري الذي تمّ من مناطق في غرب أفريقيا ووسطها، حيث نجد بعض المدن كونها معبراً لطرق القوافل التجارية وأحكام الصلة بين الواحات المنتشرة في الصحراء الليبية والمناطق الأخرى وكانت التجارة الليبية عبر المحطات التجارية تمتد من الشمال عبر الطرق الآتية: -

1. طرابلس - غدامس – السودان.

وكان هذا الطريق يرتبط بإقليم السودان، حيث تتجه القوافل من مرزق شمالاً وقد وصفه بوفيل بأن هذا الطريق من أسهل الطرق لعبور الصحراء وكان قديماً منذ العصر الروماني[4].

طريق جبل نفوسة - غدامس - تدامكة - كاوار - غات:

حيث يبدأ هذا الطريق من أحد المدن القديمة في جبل نفوسة وهي شروس، وغدامس وهي من الواحات المشهورة في الصحراء الليبية فهي أحد طرق القوافل التجارية الممتدة إلى الجنوب وتأتي كل الطرق المتجهة إلى بلاد السودان[5].

كما كانت علاقات جبل نفوسة مع بلاد السودان الغربي والأوسط بحكم التبادل التجاري فأتيحت ظروف الاختلاط جعلت الطرفين يتفوق على ثقافة الآخر، وكان من أهم العلماء الذين بذلوا جهود مضيئة في نشر الإسلام واللغة العربية في بلاد السودان الغربي هو يحي الفرسطاوي من الذين يتاجرون في بلاد السودان الغربي[6].

2. طرابلس – غات - أزغين – السودان.

وهي من الطرق التجارية التي عبرها التجّار للوصول إلى الأماكن التجارية لإجراء عملية التبادل التجاري.

أدّى الاختلاط والتمازج لبروز عنصر بشري لا تزال ملامحه واضحة بين السكان حتى الوقت الحاضر ولعلّ أهم الطرق التجارية التي اعتمد عليها القرماليون في استيراد المنتوجات الإفريقية هو طريق طرابلس - تشاد الذي يخترق عدة واحات منها واحة غدامس ومرزق وغات وبالإضافة إلى الطرق الفرعية الأخرى التي تمتد إلى إقليم النيجر عبر الواحات منها غدامس(*) [7] وطريق طرابلس – برنو، مروراً بفزان(*) والطريق الذي يبدأ من غدامس إلى بلاد الأوير عن طريق غات [8] ويعتقد أحد الباحثين أن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير بطرق التجارة الواصلة من بلاد المغرب، وبلاد السودان عبر الصحراء الكبرى أو على طول الساحلي الأطلسي إذ قامت هذه الطرق بدورها في نشر الإسلام من بلاد السنغال وأعالي البحر ومنطقة بحيرة تشاد [9].

هذا التأثير لم ينقطع طوال العهد الإسلامي، وكانت الجمعية الإسلامية الجديدة التي تنشأ في السودان تقوم بدورها في نشر الإسلام في المناطق الواقعة إلى الجنوب عن طريق التجارة والطرق التجارية.

وقد أسهم التجار في امتزاج الثقافة الإسلامية مع الشعوب التي خالطوها فأثروا في ثقافاتهم وعاداتهم وسلوكهم الشخصي وغالباً ما ينتهي بذلك إلى دخول كثير من الزنوج إلى الإسلام، وكما كاد الإسلام أن يتركز في المراكز التجارية الهامة وفي المدن الكبرى وبعض هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والعلم، فإذا ما استقروا في بعض الأماكن أنشأوا فيها مدارس لتعليم القرآن الكريم وإنشاء المساجد وقاموا بمزاولة النشاط الاقتصادي [10].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن المراكز التجارية أدّت دوراً مهماً في نشر الإسلام في الشمال الإفريقي، وارتباطها بالطرق التجارية التي تصل شرق أفريقيا بغربها كما هو الحال في وادي النيل الذي يرتبط بطرق شرق أفريقيا.

أهم المحطات التجارية التي ساهمت في نشر الثقافة الإسلامية في أفريقيا:

اكتسبت العديد من المناطق الداخلية في ليبيا(*) أهمية بالغة نظراً لوقعها على طرق المواصلات البرية المتجهة من الشمال إلى الجنوب وبالعكس، وهي محطات تجارية لراحة الدواب واستبدالها، فالموقع الجغرافي لولاية طرابلس الغرب الذي يتوسط منطقة الشمال

الإفريقي عادةً ما يطلق عليها بوابة أفريقيا الشمالية والمعبر الرئيسي لقارة الإفريقية نحو أوروبا عبر الموانئ المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وهذا الموقع كان له دوراً بارزاً في أهمية وتوثيق الاتصالات بين الساحل والصحراء من جهة، ويمثل حلقة الوصل بين مناطق ما وراء الصحراء وجنوب أوروبا من جهة أخرى، الأمر الذي أدّى إلى ازدهار المحطات التجارية عبر الصحراء، حيث شهدت الطرق البرية استتباب الأمن، ووجود البضائع المستوردة التي تأتي إلى الولاية عبر الموانئ البحرية فكانت الطرق الصحراوية بين الشمال والجنوب ذات أهمية في مساهمتها في عملية التبادل التجاري وكذلك في نشر الثقافة الإسلامية بفضل هذه الطرق التي أدّت دوراً هاماً في خدمة الدعوة الإسلامية والتعلم الإسلامي، مما يدّل على صلة انتشار الإسلام وعلومه عن طريق التجارة، فإذا ما برزت مدينة تجارية يؤمها البائع والشاري، سرعان ما تصبح مركزاً ثقافياً يؤمه المعلم، حتى أصبح من الشائع أن مراكز الاحتكاك التي تتبادل فيها السلع والأفكار[11]، وهي: -

1. **طريق طرابلس – برنو:** ويعد هذا الطريق من أقدم الطرق المؤدية إلى بلدان ما وراء الصحراء، حيث ينطلق هذا الطريق من طرابلس ثم غريان – إلى بني وليد ثمّ سوكنه - إلى برنو ويعدّ هذا الطريق من أشهر الطرق وأكثرها أمناً حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر[12].
2. **طريق طرابلس** – تمبكنتو : وتنطلق القوافل التجارية عبر هذا الطريق مارة بعدة محطات تجارية كمحطة غدامس، وسيناون إلى الأراضي الجزائرية يواصلون منه إلى سوكوتو وكاشنه بلاد الهوسا[13].

هذه الطرق ساهمت في التبادل التجاري والثقافي ونحاول تسليط الضوء على أهم المحطات ذات الأهمية في نشر الثقافة الإسلامية في أفريقيا[14].

محطة طرابلس:

يبدو أن فكرة التواصل بين المحطات التجارية في خلال القرن التاسع عشر لم يكن هناك طرق معينة تفصل المحطات التجارية بمدن أفريقية بالجنوب الصحراوي ولكن كان يتم هذا الاتصال عن طريق القوافل التجارية، ولأهمية المحطات التجارية لأن الذي ساعد ذلك هو عدم وجود حواجز وحدود طبيعية أو سياسية يتم العبور بواسطتها عن طريق إذن من الحكومات.

وتعدّ محطة طرابلس من أهم المراكز التجارية حيث تأتي في المرتبة الأولى لأهمية التجارية منذ عهود موغلة في القدم، ومما حد المدن الثلاث التي أسسها الفينيقيون (أويا – وليبتس – صبراته) فقد كانت ملتقى القوافل التجارية التي تتبادل فيها السلع عبر مينائها ويتم توزيعها إلى أفريقيا مع السلع القادمة من أوروبا وأيضاً إلى مواطن استهلاكها، كما مركز للوكلاء التجاريين لدى دول العالم المتعددة من العالم عربياً وأوربياً وأفريقياً ونظراً لكثافة الحركة التجارية بها فكثرة المشاكل الأمر الذي أدّى إلى قيام محاكم تجارية فأنشئت في 1858 أول محكمة تجارية، وذلك من أجل حل المشاكل التي نشئت نتيجة للاستقلال من بعض الوكلاء التجاريين سواء عرب أو يهود من حيث الاستقلال والاحتلال عنها[15].

وكانت أهم الطرق لهذه المحطة التي تعبرها القوافل التجارية هي: طرابلس – غات – أرغين – السودان وكذلك طريق طرابلس باتجاه مرزق ثم نيستي واواو جانقا وواوادي [16].

في هذا الصدد لعبت هذه المحطة التجارية دوراً هامًا في نشر الثقافة الإسلامية عبر هذه القوافل التجارية القادمة من الجنوب الإفريقي عبر المحطات التجارية التي سنحاول ذكر أهمها.

1. **محطة غات**[*]:

تعد غات من ضمن المراكز التجارية التي ساهمت في نشر الإسلام في أفريقيا لوقوعها عند ملتقى الطرق البرية التجارية المؤدية إلى أفريقيا، حيث تعد معبراً تجارياً للسودان وأفريقيا، الوسطى وتميكتو[*] إذ حمل التجار العرب المتبعون لقوافلهم شعلة الإسلام إلى المناطق الإفريقية فيما وراء الصحراء، ونشروا معارفهم وثقافاتهم وتقدمهم الحضاري والمادي والمعنوي في كافة الميادين، لأن التاجر العربي كان يمثل التاجر والداعية للعقيدة الإسلامية في آن واحد، ومع تزايد أعداد التاجر وتزاحمهم مع السكان المحليين، قاموا في تلك المناطق فأنشأت المساجد والكتاتيت والمدارس الدينية فموقع هذه المحطة على اهم طريق وهو طريق الحجيج الذين يتوافدون من المغرب الأقصى، ساهمت في نشر الثقافة الإسلامية من خلال الزيارات المتبادلة من خلال مرور الحجيج بقصد بيت الله الحرام.

كما كان للحركة التجارية عبر هذه المحطة هو انتقال الكتب ومرور الأشخاص وهم يحملونها الأمر الذي أدى إلى نشر الثقافة العربية الإسلامية مع المناطق المجاورة لهذه المدينة[17].

2. **محطة سوكنة**(*):

تعد هذه المحطة مركزاً تجارياً هاماً للدخول مباشرة إلى بلاد السودان كما أنها تتوسط جميع المحطات التجارية المنتشرة في مختلف الأراضي الليبية.

ترجع أهمية سوكنة كواحة تتوسط مناطق الشمال والجنوب للولاية طرابلس الغرب، الأمر الذي جعلها محطة تجارية نشطة بين طرابلس وفزان، ولاحظ أحد الرحالة الأجانب عدة وجود التشابه بين سوكنة وغدامس[18]، منها: إن التجار في سوكنة كما هو في غدامس يعدون أهم حلقات سكانهما، وقد أعطى هذا الموقع المتميز لتلك الواحة سمة تجارية، ساهمت في الاتصالات بين برنو ووسط السودان، وذلك من خلال عبور الطرق التي تربطها بزويلة الواقعة مشرق فزان، كما ساهم سكان تلك الواقعة بشكل رئيسي في نقل تجار طرابلس إلى فزان، وكذلك ارتبط مع موقع سوكنة الجغرافي بمرور القوافل التجارية بها، الأمر الذي أدّى إلى ارتباطها بالمرفقات التجارية داخل الولاية، مثل مرزق وزويلة وتراغن وغات وزلة، وقد ساعد ذلك لاتصال على إقامة علاقات تجارية معها [19].

وقد أعطى الموقع الجغرافي لسوكنة سمة تجارية لبعض الواحات التي تمر بها الطرق البرية ومرور القوافل التجارية بوجه عام، ومرورها بطريق برنو وسط السودان بوجه خاص، وذلك عبر الطريق البري التجاري مع برنو، فتمر على سوكنة ومنها إلى زويلة ثم إلى طرابلس، كما ساهمت هذه الواحة في نقل تجارة طرابلس إلى فزان حيث شاركهم في ذلك بعض من تجار فزان وطرابلس وذلك عبر الطريق البرّي المعروف عند الأهالي بالطريق العامر « التي تمر بورفلة وسوكنة، كما ترجع أهميتها إلى أنها كانت مصدراً رئيسياً لتزويد القوافل.[20] وتزويدها بالحرّاس والأدّلة الذين لهم خبرة في المسالك الصحراوية ودروبها، فقد أدّت الثورات التي اندلعت في منطقة الجبل الغربي كثورة غومة المحمودي (1850 - 1858) إلى فقدان الأمن وعرقلة سير القوافل التجارية عبر طرقها، الأمر الذي أدّى إلى نقص في السلع وكذلك اختلال التوازن بين العرض والطلب، مما أسهم في ارتفاع الأسعار لعدم استتباب الأمن، لقد تأثرت هذه الواحة بالظروف السياسية وعرقلة سير القوافل على الطرق البرية التي تمر عبر واحة سوكنة ممّا أدى إلى ارتفاع الأسعار داخل المدن، إلا أن أهلها كانت لهم طرق

وأساليب في كيفية التعامل ومعرفة الطرق التي لم تقلقها تلك الظروف السياسية وخير دليل على ذلك هو تعاون أحد التجار وبعض الأدّلاء مع الرحالة هنري بارث الألماني والرقاص المصاحب له[21].

وقد وجدت الطريقة السنوسية منطلقاً لها من الواحات الليبية كواحة الجغبوب والكفرة في نشر الإسلام في المناطق الإفريقية وخاصة تشاد فكانوا يوفدون السكان لمنطقة واداي للتعلم في زاوية الجغبوب ثم يعودوا كدعاة في بلادهم الأصلية، ونشأ من ذلك أن أهل وادي صاروا يترددون في الزوايا ووجد سلطان واداي من مصلحته أن يكون أحد أكثر أتباع المحصلين للطريقة التي احتكرت تجارة القوافل والتي كانت تتخذ من طريق بنغازي الكفرة أبشه تحت شعار التضامن الإسلامي[22].

ومما يؤكد على نشر الثقافة عن طريق هذه الواحة أن الحاج عمر السنوسي العزالي كان في مكتبه ما زيد عن ثمانين مجلد في ذلك يريد بها أعمار أسواق برنوح (برنو) على سبيل المثل لا الحصر تفسير القرآن الكريم خمسة أجزاء مثل البخاري 110 جزاء مسائل للشيخ عليشي جزأان وغيرهم كثر[23].

3. **محطة غدامس**[*]:

إن لقلة النشاط الزراعي والصناعي بمدينة غدامس، وضعف إنتاجها كان له الأثر الأكبر في ممارسة سكان المدينة إلى الاتجاه للنشاط التجاري الأمر الذي جعل هذه المدينة أن تتميز كمحطة تجارية بين المحطات التجارية الواقعة على الطرق التجارية الصحراوية، المتجه غرباً وجنوباً لمدينة توات وعين صالح وغيرها من المحطات ذات الأهمية التجارية[24].

وتشتهر هذه المحطة التجارية أيضاً لكونها ملتقى للعديد من الطرق التجارية حيث تصلها القوافل التجارية من أربعة اتجاهات عبر الصحراء كطريق ورقلة غدامس ويقطع هذا الطريق في عشرة أيام[25]، وطرابلس غات.

تعد محطة غدامس من أقدم المحطات التجارية، حيث يذكر بأن الدراسات الاستكشافية بأن التواصل والتفاعل بين الصحراء والأقطار المتاخمة لها يعود إلى عهود غابرة في التاريخ، وزاد هذا التفاعل بعد الفتح الإسلامي مناطق الشمال والجنوب عبر الصحراء [26].

كانت مدينة غدامس الطريق المفضل القادم إلى الصحراء وهي محطة رئيسية لأهالي المدن الساحلية للتوغل في الصحراء الكبرى وكانت هذه المحطة بمثابة ميناء بري تأتي إليه القوافل محملة بالمنتجات الإفريقية فتفرغ هذه البضائع وتستبدل بها بضائع أخرى وهي منتجات قادمة من الشمال عبر البحر الأبيض المتوسط[27]، وتعد من أهم الواحات في بلاد المغرب الأدنى، وكانت تسمى سيدي موسى، تقع هذه الواحة على الطريق المؤدي إلى غدامس وتمثل غدامس شريان هاماً ليس بتدفق التجارة بحسب بل هي أداة لنقل الثقافة والمفاهيم الحضارية وسط الحمادة الحمراء، عند ملتقى أودية ميمون، تاتاروت، مغرغر، وهي محطة لاستراحة القوافل التجارية، وذلك لوجود الماء في حوضها صيفاً وشتاءاً، وقد قام الرحالة الألماني غيرها ردرولفس، في رحلته من طرابلس إلى غدامس 1865 - 1867 استبدال الإبل التي استعملها في رحلته فيها، ولواحة غدامس أهمية بالغة كموقع يربط بين الساحل ودول السودان وذلك لاهتمام الأهالي بالتجارة [28].

حيث أخذ يتدفق التجار على هذه المحطة من جهة وتمبكتو بمالي من جهة أخرى في الغرب، الأمر الذي يؤكد أن الصحراء لم تكن بوماً حاجزاً أمام التواصل والاتصالات وهذا ما أوضحته الدلالات التاريخية.

فقد لعبت هذه المحطة دوراً هاماً، وخير دليل على ذلك هو ما قام به الشيخ أبو بكر بن بلقاسم الغدامسي الذي كان تاجراً ومعلّماً و مكث بأجادس حتى توفي بها منذ ساهم كثيراً في أواصر الاتصالات الثقافية من خلال جلوسه لمجالسها العلمية كمعلّم وناشر للثقافة الإسلامية[29].

وهذا الموقع الجغرافي المتميز جعلها تلعب دوراً هاماً من الناحية التجارية لمنطقة غرب أفريقيا، حيث نالت شهرة وثروات كمركز تجاري متقدم في قيادة تجارة القوافل من الشمال والجنوب، وكذلك كمركز لملتقى الطرق البرية لتجارة القوافل، وتعد غدامس من المعاير الهامة لتلك القوافل التجارية، إذ اعتمدت غدامس على حياتها الاقتصادية على التجارة، وزارها العديد من الرحالة من بينهم الرحالة الإنجليزي ألكسندر جوردن لينج في أول رحلة له عام 1825م، خلال العهد العثماني حيث قال عنها « إنهم شعب تجاري بمعنى الكلمة، بارعون في استخدام الحوالات والكمبيالات ويتحملون الربح

والخسارة وتمتد تجارتهم إلى مراكش والجزائر - تونس - طرابلس - مصراته في الشمال وإلى السودان وتنيكت وحتى مالي في الجنوب [30]، الأمر الذي يؤكّد أن وقوع غدامس على الطرق الصحراوية المارة بها، ومن بينها الطريق الرابط بين القيروان - ورقلة - غدامس — ثوات - غات - مرزق - بلما — النجيمي[31].

ومن المفيد القول أن هذه الطرق ساهمت مساهمة فعّالة في نشر الثقافة العربية الإسلامية وكان لها دور كبير في توثيق العلاقات والصلات من العرب والسودان الأوسط سواء كان ذلك لنقل حضارته أم لتعزيز الروابط التجارية أو بإمداد شعوب المنطقة بدماء جديدة نتيجة للتجهيزات البشرية المتعاقبة والتي أخذت هذه الطرق المشار لها لمنافذ عدة، ومما لا شك فيه أن هذه الطرق لم تكن من ابتكار قوافل القرون الوسطى، بل كانت منذ فترة موغلة في القدم، كما أن الصحراء أو الفيافي لم تكن بلا ماء؟ أو عشب بل توفرت فيها المياه، في بعض الواحات التي تعد مراكز تجارية ومن هنا تطرح تساؤلاً مفاده ماذا كانت تحمل القوافل التجارية المتجهة مع هذه الطرق وماذا كانت تجلب إلى البلاد؟

للإجابة على هذا التساؤل نحاول للرجوع إلى بعض الكتب التاريخية بتتبّع تطور الصلات عبر العصور التاريخية ولوقوع هذه المحطة على الطرق الصحراوية، حيث جعلت الصحراء جسراً للروابط بين الشمال والجنوب، ولتدفق هذه الهجرات المتبادلة، بل وازدهرت هذه الحياة وكانت العلاقة بين ليبيا حالياً، والتي كانت تسمى ولاية طرابلس الغرب إذبان الحكم العثماني أكثر من غيرها لوقوعها في ملتقى الطرق التجارية، كما أسلفتُ وخاصةً تلك المدينة المشار إليها، التي تعد محطة لتجميع وتوزيع القوافل التجارية المتبادلة، وازدادت عملية الاتصالات بدخول الإسلام إلى دول الجنوب واعتناقهم الدين الإسلامي مما أسهم في كثرة الوفود شمالاً وجنوباً، الأمر الذي جعل هذه المنطقة (غدامس) بوابة مفتوحة للتبشير بالدين الإسلامي ونشره في أفريقيا، ومنذ نشأتها قامت بدور فكري وثقافي رائد[32].

مما تجدر الإشارة إليه في منطقة غدامس كانت طرقها آمنة مما شجع الرحالة الأجانب في الإقامة والاستقرار بها وسهل لقوافل العلماء والكتب بعبور هذا البحر الرملي، الذي لولا القوافل لم يستطع أحد عبوره إلا أن القوافل هي التي سهلت

عبوره وأصبح معبراً بعبره التجّار مع بضاعتهم والعلماء والكتاب والتيارات الفكرية من الشمال إلى الجنوب والعكس، وأصبح التاجر هو الداعي وبيده اليمنى مصحفه الشريف، واليسرى سلعته، ويصاحب العلماء ويسهل لهم الإقامة لوجه الله تعالى، ليسهل لهم بلوغ أهدافهم وهو نشر الدين الإسلامي وثقافته عن طريق التعليم والوعظ والإرشاء والفتاوي الدينية[33].

ومن المفيد قوله أن انتشار الإسلام في ليبيا بعد الفتح الإسلامي مباشرة هو اختفاء المسحية لم تكن عميقة الجذور في نفوس سكان الصحراء الكبرى، فكانت أهمية طريق غدامس في تأثيره في مدينة تمبكتو بنشر اللغة العربية خير دليل على ذلك، اشتاهر العلماء الذين ألّفوا كتبهم باللغة العربية ووصلت إلى أيدينا كأمثال أحمد بابا التمبكتي – السعدي – وغيرهم كثر ... حيث وصف الرحالة أهمية طريق غدامس – تمبكتو في نشر الثقافة الإسلامية[34].

ومن الجدير بالذكر أن العديد من العائلات الغدامسية كان لها دوراً هاماً في نشر الثقافة الإسلامية من خلال معاملاتها التجارية ومن بين هذه العائلات، عائلة الثني التي كان لها دوراً من خلال تواجدها في النيجر ولازال بعض من هذه العائلة إلى الوقت الحالي.

وبهذا نجح العرب في توطيد علاقاتهم بأفريقيا سواء كان ذلك في شرق القارة أو غربها أو وسطها ومع توطيد العلاقات الاقتصادية والثقافية، انتقلت الحضارات العربية الإسلامية إلى عدد من الشعوب الإفريقية انتقالاً مباشراً وكان ذلك عن طريق الاحتكاك التجاري غير المباشر.

4. محطة فزان:

تعد فزان من أهم المحطات التجارية ومعبراً للحجاج القادمين مع طريق الحجيج والحاج القادم من بيت الله الحرام بمكة لأداء المناسك في وقت معلوم من السنة المعروفة، فكانت فزان تمثل ملتقى الطرق العابرة إلى مكة المكرمة، التي أعزها الله سبحانه وتعالى.

وتتميز هذه الطرق من شمال غرب أفريقيا والسودان الغربي، والسودان الأوسط، فكانت فزان من المناطق الحيوية بالنسبة للتجار والحجاج المسافرين على طول الخط هذا الطريق، فالطرق التجارية التي تربطها أفريقيا ما وراء الصحراء بشمال القارة وشرقها هي المعابر الحقيقية التي تسرّب منها الإسلام وحركة الهجرات والمبادلات

التجارية ومن ثم انتقلت المؤثرات والأفكار والثقافات بين الشعوب والمناطق المختلفة مما جعل العديد من الكتاب والباحثين يربطون بين حركة التجارة وانتشار الإسلام في أفريقيا[35].

انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا:

لقد انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في أفريقيا بفضل ثلاثة وسائل رئيسية، من أهمها طرق القوافل التي انطلقت من المحطات التجارية.

ازدادت الأواصر والعلاقات وترسخت عبر الإسلام إلى القارة الإفريقية: فاجتاز الإسلام الصحراء، واتجه صوب الغرب والشرق في وهلة سريعة اذهلت المؤرخين واعتنقه الأهالي بسرعة، فاقت تصور المراقبين، فقد انتشر الإسلام في غرب القارة، وكان أول وجود الإسلام في مناطق كانو –برنو – يعود إلى 666 م وهي السنة التي وصلت فيها طلائع عقبة بن نافع التي قادها لفتح شمال أفريقيا، وأغلب الظن أن الطريق الذي سلكه عقبة بن نافع وجنوده، كان يربط بين طرابلس وكانوا فكان هذا الطريق فيما بعد يمثل قناة يتدفق من خلالها التأثير الإسلامي من كانو – برنو إلى مناطق أخرى من السودان الأوسط[36]، ولكن من أهم الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام وترسيخ التواصل الثقافي بين المسلمين بعضهم ببعض وبين أهل الديانات الأخرى هي المبادئ الإسلامية التي يؤمن بها المسلم، ويلزم نفسه بتطبيقها، فعلاقة الإخوة والمساواة والاهتمام بشئون الآخرين والعمل على مساعدتهم تأتي في مقدمة المبادئ الإسلامية وهذه المبادئ تساوى بها المسلمون جميعاً.[37]

وبانتشار الإسلام ثم انتشار اللغة العربية لغة الحديث والمخاطبة والكتابة، فقبل الإسلام كانت الزعامة الثقافية في جزيرة العرب تنازعها التفنن في اللغة العربية الجنوبية واللغة العربية الشمالية، وأن هذا التنافس انتهى باضمحلال لغة الجنوب بعد أن اضمحلت الدول العربية الجنوبية في ميدان السياسة والاقتصاد وانتقلت زعامة الشمال وأنها تعرضت منطقة الشمال الإفريقي إلى موجات من الهجرات البشرية المتتالية منذ قرون عديدة قبل الإسلام وقد انطلقت هذه الهجرات من شبه الجزيرة العربية وهذا يؤكد على أن الوجود العربي في المنطقة الشمالية من أفريقيا يرجع ما قبل الإسلام[38].

وكان للهجرات الفينيقية من بلاد الشام والذين استوطنوا شمال أفريقيا ، وفي قرطاج بالتحديد بداية الأمر، ثم توسعت هجراتهم إلى بقية الجوار، وكان هناك اتصالات بين غرب شمال أفريقيا والصحراء حيث عبر القرطاجيون الصحراء بحثاً عن التجارة واستوطنوا هناك وتزوجوا بنساء محليات وهذا ما يؤكده المؤرخ الفوتس ديلافوس delafossc لدعم هذا الاستدلال حول تأثير اللغات السامية على اللغات السودانية لفترة تعود ما قبل الإسلام إلا أن هذا التأثير وفعاليته تأكد دعمه بعد انتشار الإسلام واللغة العربية في بعض المناطق ما وراء الصحراء[39].

وتُعد اللغة العربية أقدم لغة حية في العالم وتحتل المرتبة السادسة من بين لغات المتحدثين بها، وتؤكد كتب التاريخ أن اللغة العربية كانت أحد لغتي العالم القديم الذي يمثل أفريقيا وآسيا وأوروبا وأصبحت لغة الشمال لغة الآداب والخطابة والفكر الراقي[40] ولكن يثار هنا سؤال مفاده لماذا انتشرت اللغة العربية في منطقة الشمال الإفريقي بكل سهولة ويسر وتأثر بها شعوب المنطقة، كما توطدت العلاقات الثقافية بين المغرب العربي ودولة مالي، وبكفى أن نذكر هنا إنه كان يجمعها مذهب ففهي واحد، وهو المذهب المالكي، وكان فقهاء العرب دائماً على اتصال بفقها السودان الغربي، لتبادل الفتاوى والتأليف والرحلات، كما أن اتصال غدامس بالمغرب العربي كان له دوراً كبيراً في نشر الثقافة الإسلامية واللغة إلى بلدان السودان الغربي[41].

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازدادت المراكز الدينية للحركة السنوسية حيث عمت وساعدت على نشر الثقافة الإسلامية في دول الصحراء حيث وصل عدد المراكز الدينية المتمثلة في الزوايا في ولاية طرابلس الغرب وبالتحديد بطرابلس 45 زاوية وفي فزان والكفرة على أقصى الحدود النوبية بحوالي 21 مركز حيث وصل مجموعها إلى 146 زاوية للتعليم الديني بما في ذلك زوايا في تونس ومصر والسودان[42].

في هذا الصدد حاول الولاة العثمانيون بأن يتصدوا للردود الفعل من قبل تنامي الحركة التبشيرية التي قادتها الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وإيطاليا التي كانت تنوي احتلال تونس وليبيا، فأقامت عدة مدارس تعليمية دينية يدرس فيها الطلاب القرآن الكريم والحساب والجغرافيا وذلك للتصدي لهذه الرحلة الخطيرة من قبل المستعمر[43]، فكان دور القبائل دوراً هاماً في عروبة تشاد [44].

الخاتمة: -

مما سبق ذكره يتضح أن المحطات التجارية لها أهمية كبيرة في وقوعها بالطرق البرية التجارية لم تكن حلقة وصل تربط العرب والأفارقة اقتصادياً فحسب وإنما كانت بوابة عبور الثقافات، إذ توافد من خلالها شتى العلوم والمعارف، وعن طريقها عبر الإسلام من ديار العرب ليستقر في داخل أفريقيا ونشر الثقافات وتلاحمت الأفكار وتبادلت الأمم موروثها الثقافي الاجتماعي، بل وتظافرت الجهود لتنتج جيلاً يحمل خصائص العرب والأفارقة ويتسلّح بالثقافة العربية الإسلامية.

ومن المفيد قوله أن انتشار اللغة العربية في معظم أفريقيا ساعد ذلك بدخول الإسلام إليها، فأينما حل الإسلام حلّت اللغة العربية لأنها لسانه وأداته في مخاطبة الآخرين، علاوة على كونها لغة العلم والحضارة والتاريخ.[45]

وكان من بين وسائل انتشار الإسلام طبقة التجّار الذين أتاحت لهم الطرق الصحراوية سرعة التحرك من خلالها، وأفلحوا في ضم الكثيرين إلى الإسلام[46]، والتي كانت واحة غدامس من أهم هذه المحطات التي ساهمت بدور فعّال في نشر الثقافة الإسلامية من خلال التجّار الذين كانوا يحملون التجارة يبدو العلم ونشر الإسلام بيدٍ آخر.

هوامش البحث: -

1 - رولفس ، رحلة عبر أفريقيا رحلة من البحر المتوسط، إلى بحيرة تشاد وإلى خليج غيتا، رجمة: عماد غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سبها، 1974م، ص90.

2 - محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، في الفترة ما بين 1792 – 1830، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص 77.

3 - سامية أبو عجيلة العجيلي، دور المؤسسات الثقافية في مجتمع ولاية طرابلس الغرب خلال العصر العثماني الثاني، جامعة طرابلس، 2007، رسالة ماجستير غير منشورة.

4 - حسن الشيخي، الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي من القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين، مملكة مالي الإسلامية أنموذجاً، رسالة ماجستير جامعة طرابلس 2003م، ص47.

5 - بشير يوشع: غدامس ملامح وصور، ط 1، بيروت، دار لبنان للطباعة والنشر، 1973 م، ص91.

6 - محمود كردي، الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراتها على السودان الغربي، منشورات دار الكتب الوطنية، 2008م، ص 263.

7 - المرجع السابق نفسه.

(*) غدامس: تقع هذه الواحة في الحدود الجنوبية الغربية لليبيا حالياً « وقد دخلها الإسلام مبكراً،

واشتهرت بموقعها الاستراتيجي الهام كطريق للقوافل التجارية ومواكب الحج بين بلاد السودان الغربي والأوسط والمشرقي والجنوبي وقد وضعها كل من صاحب الاستبصار والحسن الوزان لمزيد من الإيضاح ينظر : الاستبصار في عجائب الإمصار، تعليق: سعد زعلول، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ص985.

8 – حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، 1986م، ص210.

(*) فزان: تقع وسط ليبيا حالياً إلى الجنوب من مدينة طرابلس، وقد كانت مركزاً تجارياً وحضارياً هاماً ، وقد ارتبط بعلاقات مختلفة مع السودان الغربي، وقد وصفها الوزان بأنها منطقة كبيرة جداً مكونة، فيها قصور كثيرة، ينظر: إمطير سعد غيث ، الثقافة العربية الإسلامية في مجتمع السودان الغربي، خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجري، السادس عشر والسابع عشر للميلادي، دراسة في التواصل الحضاري العربي الإفريقي، بغداد، إدارة الشؤون الثقافة العامة، (د، ت)، رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية ، القاهرة، 2003، ص48.

9 – بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة: عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1991م، ص 220.

10 – توماس رنولد، الدعوة إلى الإسلام ، القاهرة، 1957م، ص 60.

11 – تيسيير بن موسى، المجتمع العربي في العهد العثماني الثاني، الدار العربية للكتاب ، 1988م، ص81.

(*) طرابلس الغرب: تجدر الإشارة إلى أن اسم ليبيا قد أطلق منذ البداية للاحتلال الإيطالي، 1911، أما قبل ذلك فتسمى طرابلس الغرب

12 – صبري رزق الله أحمد، حركة التبادل التجاري والإسلام والتعليم الإسلامي غربي أفريقيا قبل الاستعمار وآثارها الحضارية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1998م، ص 63 وبعدها.

13 – حسن المدني كريم: علاقة ليبيا ببلدان ما وراء الصحراء في عهد يوسف باشا القرمانلي فيما بين 1795 – 1832، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة قاريونس، 2005، ص23.

14 – المرجع السابق نفسه.

15 – المختار الجدال، طرق تجارة القوافل في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني 835 – 1911، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ ، جامعة صنعاء، اليمن، 2003، ص40.

16 – تيسيير بن موسى، مرجع سابق ، ص170.

17 – سامية أبوعجيلة العجيلي، مرجع سابق ذكره، ص31.

(*) غات: تقع في الجهة الجنوبية الغربية من ليبيا حالياً وعلى حدود الجزائر ، وهي تعد محطة تجارية هامة للقوافل التجارية القادمة من غدامس إلى السودان الأوسط والغرب،.

(*) تقع تنيكت في الجهات الشمالية من دولة مالي، وفي إطار التأصيل المفاهيم في تاريخ هذه المنطقة فإن تمبكتو هي التسمية الصحيحة لهذه المدينة وليس تمبكتو Timboctou كما وردت في كتابات الغربيين والميم مثل توماس أرنولد، ودبيوا، وبارث وغيرهم ينظر انظر: أمطير غيث، مرجع سابق، ص139 وبعدها.

18 – نجمي رجب ضياف: مدينة غات وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية التطبيقية، 1996 م، ص 271.

(*) سوكنة وهون وودان واحة منخفضة وتعتبر واحة الجفرة الثلاثة أجزاء مع مجموعة واحدة خط

عرض 290 والتي تمتد من غدامس جنوباً حتى الجغبوب شرقاً وإلى الجنوب الشرقي من طرابلس والركن الشمال الشرقي لأطراف فزان، لمزيد الإيضاح: ينظر: المختار العفيف، سوكنة خلال العهد العثماني الثاني، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، 2002، ص25 وما بعدها.

19 – المختار الجدال، مرجع سابق، ص90.

20 – رحلة عبر ليبيا، فردبك هورغان، الرحلة من القاهرة إلى مرزق، 1817 – 1898 ، مكتبة الفرجاني ، ليبيا، 1968م، ص 120.

21 – ألكسندر مولدن، رحلتان عبر ليبيا، ترجمة دار الوفاء، طرابلس، 1974م، ص 74.

22 – أعمال الندوة العلمية، مرجع سابق، ص85.

23 – محمد بشير سويسي، غدامس من خلال كتابات الرحالة والمؤرخين، تقديم نورالدين الثني، أعمال الندوة العلمية التاريخية حول تاريخ مدينة غدامس، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2003، ص118.

24 – عبدالسلام أبو سعد، العلاقات الثقافية بين الشعوب الإفريقية وأثر الإسلام واللغة العربية في ترسيخها، أعمال الندوة العلمية ندوة التواصل الثقافي الاجتماعي من الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، كلية الآداب انطوان، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس، منشورات الدعوة الإسلامية، ص 130.

(*) غدامس: يفتح أوله ويضم أخره، وهي عجمية بربرية، فيما أحسب، وهي مدينة بالمغرب ثم في جنوبه ضاربة في بلاد السودان، بعد بلاد زعوان، تزيغ فيها الجلود، القداسية وهي من أجود أنواع الدباغ لا شئ فوقها في الجودة كأنها بنات الخزنى النعومة لإشراف في وسطها عين أغلبها نبات عجيب رومي بغض الماني بها وبقسمة اهلها أقساط معلومة، المدني سعيد عمر، مدينة غدامس ودورها التاريخي خلال القرن التاسع عشر، بحث في المؤتمر الدولي السابع عن التجارة والتجار المنستير، تونس، 2014، ص2.

25 – محمد مروان، دور تجّار غدامس في التجارة الصحراوية خلال القصف الثاني من القرن التاسع عشر، دراسة وثائقية، مجلة كلية الآداب، جامعة طرابلس، العدد 11، 2009، ص 141.

26 – محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 62.

27 – محمود حسن كرودي، الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيرها على بلاد السودان الغربي من القرن(2 – 8هـ/8 – 14م) بنغازي 2008م، ص260.

28 – حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، 1986، ص20.

29 – المدني سعيد عمر، مرجع سابق، ص6.

30 – عمّار جحيدر، واحة غدامس منطلقاً للتواصل الثقافي بين ليبيا وجنوب الصحراء ملاحظات أولية من خلال مخطوط تذكير الناس، أعمال الندوة العلمية، التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار العربية على جانبي الصحراء، 12 – 14/ 5/ 1998، ص 231.

31 – عماد غانم، غدامس في رحلة رولفس الأول إلى ليبيا أواخر 1864م، أعمال الندوة العلمية التاريخية ، تقديم : نور الدن الثني، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2003، ص241.

32 – المرجع السابق، نفسه.

33 – امحمد سعيد الطويل، مرجع سابق ، ص89.

34 – المرجع السابق نفسه.
35 – مصطفى البابور، غدامس التحضر والقاعدة الاقتصادية ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي، 1975م، ص60، وكذلك : بشير بوشع، غدامس وثائق تاريخية واجتماعية، منشورات مركز جهاد الليبيين، 1982، ص25.
36 – أحمد محمد كان، مظاهر الاتصالات الفكر والثقافة في شمال إفريقيا من ليبيا ووسط السودان، مجلة البحوث التاريخية ، العدد 1، السنة الثالثة، 1981، ص 16.
37 – جبرائيل أبوبكر علي، طرق القوافل وأثرها في تقوية الصلات الثقافية من ليبيا وجيرانها في الجنوب الصحراوي "أعمال الندوة العلمية التي عقدت في المغرب، تطورات مرجع سابق، ص85.
38 – جميلة أحمد التكتيكي، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد ألاسكيا، محمد الكبير، 1493 – 1528 م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة طرابلس، 1998 م، ص 163.
39 – محمد علي عيسى، التواصل الثقافي من شمال أفريقيا وبلدان ما وراء الصحراء خلال العصر الوسيط " التواصل الثقافي من ضفتي الصحراء الكبرى في أفريقيا، تأليف محمد عيسى وآخرون، منشورات الجامعة المغاربية ، دار الوليد، 2004، ص25.
40 – بروشين، مرجع سابق، ص 344.
41 – المرجع السابق نفسه، ص 360.
42 – حسن محمود، انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، 2009 م، ص55.
43 – بروشين ، مرجع سابق، ص344.
44 – المرجع السابق، ص360.
45 – محمد الضوء، دور القبائل الليبية واليمنية في عروبة تشاد، التواصل الثقافي ، مرجع سابق، ص291.
46 – حسن علي الشيخي، مرجع سابق، ص136.
47 – مهدي رزق الله أحمد، مرجع سابق، ص 754.